لن تموت....

جميل مفرّح

* لا غرابة في كوننا ننتحرُ كلّ لحظة، نتذكّرُ فيها أننا موجودون، وأننا لمَ نمت في آخر مرةٍ كنا فيها على موعدٍ مع النسيان.. ولكن الغريب حقاً أن نحاول قتل النشيد والضوء وخنق صرير الريح واستلاب الألحان هيئة التهادي والانسياب إلى حواسنا التي تموت وتفنى، كلما منعناها من تنفس الصوت واللون والرائحة والذائقة.. ذائقة الفن والتصعد في سموات الإبداع المحلق عالياً..

* أيها الوطن عبدالله البردوني.. أنت على مواعيد قادمةٍ لا تعداد لها مع خياناتنا الموغلة في التنكر والنسيان والتهميش.. وتلك خياناتٌ تعوّدتها منذ ميلادك، ومنذ التفّ الضوء بدسيسةٍ ما على نقاء طفولتك، وأخذ عينيك في جيبه ومضى، تاركاً إياك في ظلمات المجاهيل والمقادير..

* نعم.. نخونك كل يوم وكل لحظة وكل قصيدةٍ نقشتَ فيها قبل أن تمضي مبتسماً، سخرياتك منا ومن خياناتنا الأزلية والأبدية..

هـه.. أتـصـورك الآن وأنـت تنظر إلينا بإشفاقك الممعن وتعد لكتابة قصيدة جديدة.. تسرد فيها تفاصيل خياناتنا المكشوفة كأية جيفة، وتصف فيها ما تركته الإنسانية فينا من سؤرٍ وضيع، ومع ذلك ولأنك الكبير عبدالله البردوني، لا تتقزز منا أو تحجب عينيك عن بشاعة ما تبقى منا..

* أيها الشاعر المضيئ والأفـق المرتب كقصيدة حديثة، والمرصع بكواكب من شعر وفضة.. أنت الحي الوحيد المتبقي فينا، ونحن جميعاً الميتون فيك.. فلتكن قصيدتك القادمة مبشرةٍ بوطنٍ خالٍ من نيكوتين الخيانة.. وقطران التّنكّر، وطنٍ خالٍ من رصاص النسيان.. فلتكتب سيرةً الارتّهان القميئة التي عشناها ونتباهى بعيشها، في حقك وفي حق وطن بتنا لا نفرق بينك وبينه.. تداخل أكثر مع ذلك الكائن الذي لم يستطع كائن في الوجود سـواك تمثله ومشابهته حد التداخل والالتباس..

* عبدالله البردوني.. سنظل نحاول قتلك ولا نمسح عن أيدينا آثار ذبحك.. وكأننا نتباهى بإعدامك ونحيي له ذكرى خالدة في دفاتر الزمن.. سنظل ننفخ في رفاتك لئلا يظل منه شيء، وستظل أنت تباغت الرفات والأقدار وأدوات الفناء، وتطل علينا بابتسامتك الساخرة من دهشتنا وارتباكنا واعتذاراتنا الكاذبة التي نظل ندبج فيها بعناية تفوق عنايتنا بمحاولة تذكرك.. أو المرور على قصائدك الجديدة، التي تكتبها هناك في الأقاصي عنا وعن الوطن الذي يتراءى لنا كلّ وهلةٍ في بصيرتك.. وتطل أنت كل دمعةٍ من عينيه..

* سننساك أيها الوطن المتراكمة ذكرياته وعواطفه في النزر اليسير او الأثر الطفيف من بقايا الإنسان بداخلنا.. فاعذرنا واعف عنا، وتجاوز تلك النسيانات والتناسيات المرة التي نتقمصها.. ويقيننا كبير جداً أننا وإن نفخنا في ذكرياتك روحاً نسيانية نكرانية.. ستظل تلك الذاكرة المشبعة بنا والتي تنسى أو بـالأصـح تـأبـى أن تموت..

سؤال الهوية في شعر البردوني

2-1

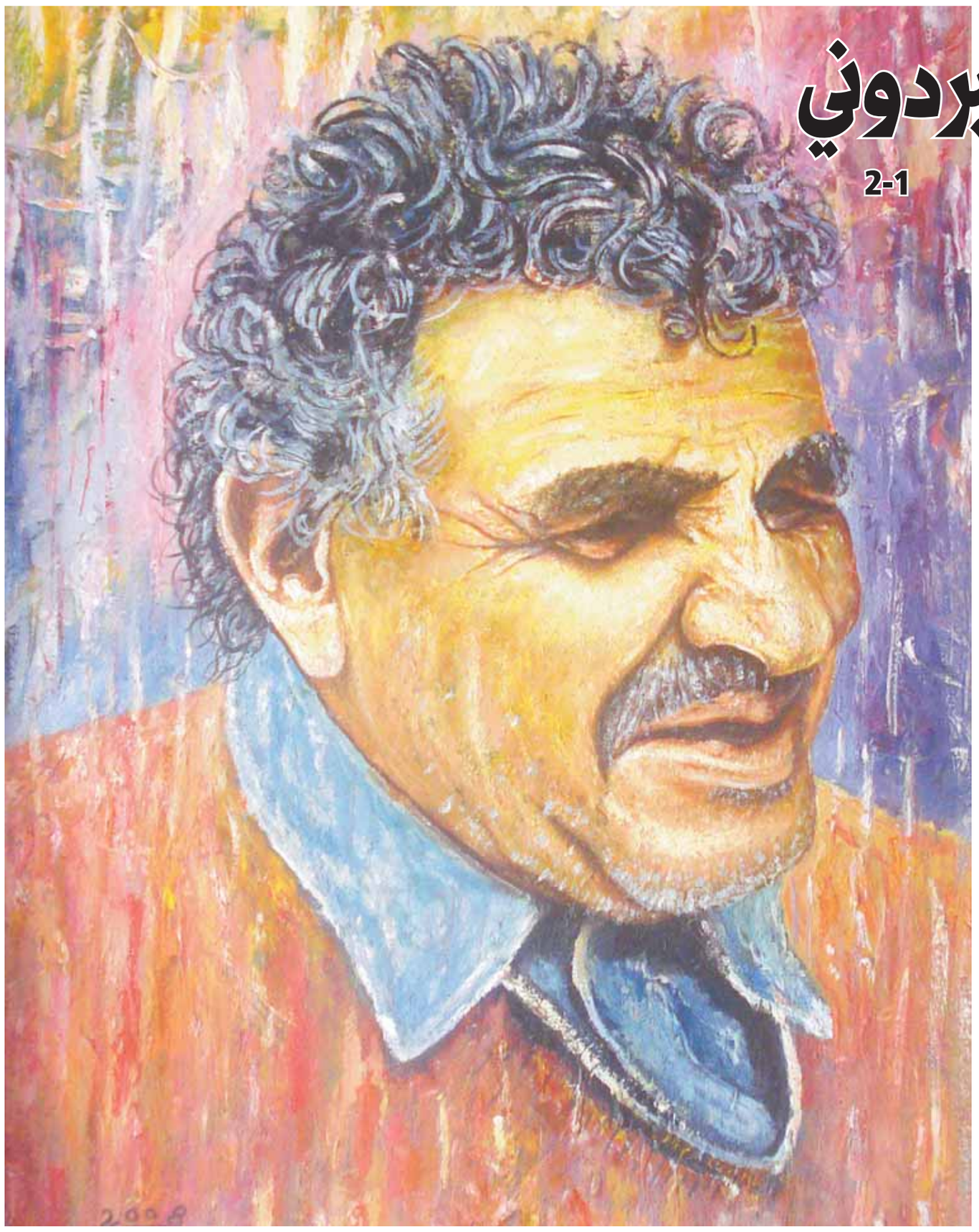

يعد سؤال الهوية في هذه المرحلة سؤالاً عصرياً ملحاً جاء بفعل السيطرة والاستحواذ الحضارة الحديثة التي تلتهم مقدرات الأمم وتحولها من أمم فاعلة مؤثرة إلى أمم تابعة مستسلمة ويأتي هذا السؤال بفعل الضعف والخفوت الحضاري للأمم والشعوب العربية والإسلامية وغيرها. ويأتي خوفاً من موت الذاكرة الحضارية للأمة والتأثير الفاعل في غيرها خاصة وقد أمتلك الآخر وسائل حديثة ومتطورة محاولاً طمس الهوية العربية ومكرساً لهويته وحضارته فضلاً عن الاستغلال الاستعماري في الشعوب استغلالاً وتبعية وتكريساً للضعف وليس الصراع مع الأخر ليس ظاهرة طارئة لكنها تمتد من مرحلة الضعف التي دبت في جسد الأمة بالتفكك والضعف للحضارة العربية الإسلامية واتضح أكثر منذ قال المتنبي في صف حال الأمة من خلال حكامها. (أرانب لكنهم ملوك مفتحه عيونهم نيام) فهذه من الصرخات الأولى على ضعف الأمة وتراجعها وتجلت الصورة أكثر. من الوهلة الأولى للدخول الحملة الفرنسية مصر حيث حملت معها المراصد والمطابع لكنها تدوس المقدس بحوافر الخيل واتسعت الصورة إبان الاستعمار الأجنبي للوطن العربي والذي كان للأدب والفكر الدور الأكبر في الحفاظ على الهوية العربية والإسلامية ولكنه بلغ النضج حين أعلنت دولة إسرائيل عن أرض فلسطين فسجل (عمر أبو ريشة بقصيدته الرائعة التي مطلعها).

(أمتي هل لك بين الأمم منبر للسيف أو للقلم)

علي أحمد عبد قاسم

فالشاعر العربي والأدب منشغل بالهوية والخصوصية منذ القبيلة إلى الدولة والحزب والطائفة فالهوية والسمات المشتركة، بوصفها كانت وما تزال مرتكزاً رحباً لموضوعات الأدب والشعر عموماً ويعد البردوني من أبرز الشعراء الذين حاولوا الانشغال بالذات والخصوصية ونفي الدخيل على الانتماء والسمات والقديم مدافعاً عن الموروث مؤمناً به كمرتكز للانطلاق والتجدد رافضاً الزيف والخيانة والاستغلال والضعف أملاً بالمستقبل ولعل أهم أهداف هذه القراءة :

إبراز خطاب النص الشعري بدلالات الهوية التاريخية كمرتكز للانطلاق الحضاري وليس التوقف عنده فقط

قراءة الإشكاليات التي تعيق التجدد ألخضاري للإنسان اليمني والعربي.

قراءة بعض ملامح سمات الهوية كالتاريخ المدون والسمات والقواسم.

قراءة بعض الدلالات التي أفضت إلى تشظي الهوية العربية واليمنية

دلالات المعاناة والصراعات على تشظي الهوية.

-قراءة بعض مجالات الصراع بين الأنا والأخرى.

-محاولة استنتاج بعض النتائج لعلاقة الأنا بالآخر والأنا بالأنا

-اكتشاف الصورة للهوية الجماعية في ظل الضعف والقوة.

وسأبدأ بتعريف الهوية.. يقول الدكتور محمد عمارة الذي يقول: (قال" الجرجاني في تعريفها أنها "(الحقيقة المطلقة المشتملة على الحقائق اشتمال النواة على الشجرة في الغيب المطلق)، ويردف "جاءت في المعاجم الحديثة أنها حقيقة الشيء أو الشخصية المطلقة المشتملة على شعوب البلدان المفتوحة وانضمت إلى نسيج الجماعة العربية بالتعريب"()).

ومن ذلك فإن الشخصية ذوبان للذات في الخصائص والقواسم كمثل البذرة التي تحمل صفات واتساع الشجرة والشتلة والسنبلة مما يفضي إلى علاقة ما بين الشخصية والمكان والرعاية فضلاً من رؤية نوعية الأرض ومقدار العطاء المتبادل الخير والشر والذي يعود على الشخصية من الانتماء والرضا والتجذر والنهايات والحصاد، مما يفضي العروبة نسيجاً ذائباً واحد متوحداً فكراً ومصيراً ونص البرودوني يتحدث عن هذه القواسم.

إنا توحدنا هوى ومصائراً
وتلاقت الأحباب بالأحباب
أترى ديار العرب كيف تضافرت
فكأن(صنعا) في دمشق روابي
وكأن، مصر وسوريا ي مأرب
علمٌ وفي صنعا أعز قباب
لاقى الشقيق شقيقه فاسألهما
كيف التلاقي بعد طول غياب
دعني أغرد فالعروبة روضتي
ورحاب موطنها الكبير رحابي
فدمشق بستاني ومصر جداولي
وشعاب مكة مسرحي وشعابي
وسماء لبنان سماي وموردي
بردى ودجلة والفرات شرابي
وديار عمان دياري.... أهلها
أهلي وأصحاب العراق صحابي

بل إخوتي ودم الرشيد يفور
في أعصابهم ويضج في أعصابي

وبذلك "تحولت العروبة بالمعنى الحضاري والفكري وليس بالمعني العنصري والعرقي إلى هوية للجماعة البشرية التي تعربت وأصبح ولاؤها وانتماؤها لكل ما هو عربي".

ويؤكد النص القواسم للإنسان اليمني الذي يمتلك ملامح هوية مميزة وتحولت على عنصر فكري حضاري يمني ممتد ومميز وموحد رغم التعدد ووحدية الأنا العربية.

لاقيت فيك (بكيلاً) (حاشداً) (عدنا)
ما كنت أن ألقى هنا بلدي
رأيت فيك بلادي كلها اجتمعت
كيف التقى التسعة المليون في جسد

ويأتي تعريف ثان للهوية يتمثل أنها " ما يصمد من الإنسان عبر الزمن إذ تلازمه مكونة شخصيته بشكل ثابت يمنحه طابعاً خاصاً كي لا يكون مسخاً للآخرين لذا تعد شرطاً ملازماً للفرد يؤثر في الجماعة ويمنحها سمة خاصة ولا تنفصل (الأنا) عن (النحن) لأن الهوية تحقق شعوراً غريزياً بالانتماء للجماعة من خلال التبادل والاعتراف)

وإذا كانت الهوية " (زمان، مكان) من خلال المفهوم فإن اللغة الشعرية في نصوص البردوني حاولت أن تعطي أشكالاً لمستويات الأنا (الهوية) من خلال وجودها سواءً كان ذلك وجوداً مؤثراً في الماضي أو ضعيفاً منهزماً في الحاضر، أو بتحوله بنسبية في مراحل من التاريخ.

"أضاعت" " آزال " بنيها غدت
لكل دعي كأم وأب
وأقعت لها قلب فاشية
ووجه عليه سمات العرب
فهل تلك صنعاء ؟ يفر اسمها
أمام التحري ويعوي النسب"

في التنافس على الاستسلام بما يفضي إلى أن الذات تجلد نفسها مستنكرة من تحول الهوية (الأنا) من جماعية إلى (اأوات) كثيرة متشظية وضعيفة وتحولت الأنا الجماعية إلى آخر في الخيانة بما يشبه تأبيد الذات في التخلف والاستسلام، ولأن (الأنا) لا تتضح إلا بالآخر فإن العلاقة ما بين الأنا الهوية والأخر علاقة متنافرة تتضح من خلال الفوقية والاستلاب "والتوقف عند الماضي"، "لكل دعي كأم وأب"، (لها قلب فاشية ووجه عليه سمات العرب) وتأتي علاقة الإنكار من خلال الاستسلام والضعف وتحولها المدهش، ومن خلال مفاهيم الهوية، فإنه لا يمكن اختزالها بمفهوم صاف باعتبار الهوية عنصراً متخيلاً وهي مجردة وليست واقعية كما يقول هيجل (إن الذات موضوع لكن الهوية مازالت مجردة مادام الواقع خارجاً عنها).

ويقول الدكتور أحمد حيزم (إن كلمة الهوية مربكة، لما يقوم عليها في الذهن من بون شاسع بين دلالاتها المفهومة واستعمالاتها في سياقات متغيرة فالأصل فيها منطقي محكوم بأقيسة العقل، إذ تبين وجوه التماثل والوحدة إلا أن ما تعرضت له من مجاذبة، وما مثلت من رهانات متنوعة، جعل القول فيها بالحرج العلمي والانزعاج المعرفي ويأتي الانزعاج بما تحملته من الإرث الاستعماري النازي والقومي...الخ، بيد إن العقل يدرك في الكلمات ما ينتفي غير كونها مكونات خطاب تغدو موضع رهان لمذاهب متعددة ومتصارعة).

لكن سؤال الهوية سؤال معرفي وعصري يساءل الجماعة عن مستواها ووجودها وتأثيراتها وتحولاتها وعلاقاتها ومستويات الفاعلية والجمود ومن هذا المنطلق ستكون القراءة مرتكزة على هذه الأسس في بعض نصوص شعر عبد الله البردوني.

لأن الخطاب في النصوص الشعرية عند البردوي دلالات التحول من الإرث الفكري الضارب في التاريخ خشية الغياب وعدم التأثير باعتبار أن التغير والتحول له مرتكزات حضارية، فهذه (أوربا التي انخرطت في عصر النهضة انطلقت من التراث الروماني الذي كانت ايطاليا مهده الأول).

فكان الخطاب الشعري يؤكد هذه الخاصية ففي قصيدة (لها) يتغزل البرودني بصنعاء باعتبارها اختزال لليمن كله منطلقاً من الإرث الحضاري العريق، ويمكن أن يسائل التخلف والجمود والإخفاقات الحضارية من خلالها.

أذوب وأقسو كي أذوب لعلني
أؤجج من تحت الثلوج صباها
وأنسج للحرف الذي يستفزها
دمي أعيناً جمرية وشفاها
أذكرها مرآتها عرق مأرب
وإن لها فوق الجبين جباها

يتضح أن النص يحاول "استعادة الإرث والمخزون في الذاكرة وفي الواقع خشية (النسيان) واللامبالاة وانمحاء الذاكرة في الموت".

ولكن الاستعادة تأتي من أجل التجدد والاستمرارية في التاريخ بهوية قوية فكانت الدلالات (أؤجج من تحت الثلوج) ليعكس شيئاً من الثبات في المتغير المتخلف والمستقر الثابت فكانت (أعيناً جمرية) معادل مساو ومتحد لبرود الثلج ليأتي التكون الحضاري للهوية من خلال (مرآتها عرق مأرب) (إن لها فوق الجبين جباها) وهذه الاستعادة للهوية كمرتكز للانطلاق وليس تغن ثابت في مناجاة الإرث الميت فقط، والتوقف عنده ويحاول النص أن يستعيد الهيبة الحضارية للوطن والكرامة الشاملة للأنا.

أغني لصنعاء التي تردي ملوكها
وتهوي وتستجدي ملوك سواها
لصنعاء التي تأتي وتغرب فجأةً
لتأتي ويجتاز الغروب سواها

فكانت استعادة الهوية من أجل (التذكير بالإرث والهوية خشية النسيان والأفول)، والعودة الحضارية في التأثير والتأثر.

ويتضح ذلك من خلال النص الرافض للضعف والانهزام (صنعاء التي تردي جميع ملوكها وتستجدي ملوك سواها) فكان الانهزام والمذلة محركاً لذاكرة هوية الموروث في هوية واضحة لأن الفعل (تأتي) هو أصل الخطاب في النص بوصف (تأتي وتغرب) فيها حركة مترددة لا تتمكن من العودة للموجود الخالد حضارياً فكان الفعل (تأتي) تعليلاً للإشراق للهوية الحضارية من جديد (ويجتاز الغروب سواها) بوصف الهوية الحضارية ضاربة وكثيفة وثرية فأنكر النص رافضاً التنازل عن الخصوصية والتاريخية للوطن لأن المخاوف والآلام تأتي من تبدد الهوية والأفكار بالتجدد أكثر غنى وثراءً فسواها أحق بالأفول منها؛ لأنها مكون للشخصية ومن خواصها فأن النص عكس حالة من الإباء والكبرياء في السيطرة على المؤهل الحضاري باعتبار الهوية التي تمثل (الأنا) هي هوية تعبر عنها اللغة ودلالاتها (في صيغ قوليه تجلو الذات وتوفر المعطيات المسلمة بها وهذه الذات ليست سلبية أو متحجرة)، (تردي ملوكها، وأقعت على قلب فاشية).

لذلك كانت الهوية في الخطاب تتساءل عن الاستسلام والهزيمة للهوية الجماعية وتتساءل عن الانهيار القيمي للإنسان خاصة تجاه موروثه وحضارته أو أصالته وباعتبار تلك مرتكزات للانطلاق والمنافسة.

أضاعت "آزال" بنيها، غدت
لكل دعي كأم وأب
وأقعت لها قلب فاشية ووجه
عليه سمات العرب
فهل تلك صنعاء ؟ يفر أسمها
أمام التحدي ويعوي النسب
وراء الستار الظفاري عيون
صليبية وفم مكتسب
عجوز تئن بعصر الجليد
وتلبس آخر ما يجتلب

من ذلك فإن الخطاب يعكس دلالات مصورة للهوية التي أضعفت بتجلي الموروث الحضاري (آزال) (الظفاري)، وكل ذلك تمظهرات حضارية خالدة ماضوية يمكن الارتكاز عليها، فكانت (الأنا) صورة للاستسلام والهزيمة (أضاعت آزال بنيها) وهذا ملمح للقوة المسيطرة الدخيلة، ومجاراة الهوية الجديدة (لكل دعي كأم وأب) وكانت اللفظ للهوية الدخيلة (أقعت لها قلب فاشية) ويأتي التناقض في زعم الأخر الانتماء (لكل دعي كأم وأب) "عليه سمات العرب"، "وراء الستار الظفاري عيون صليبية) تخفٍ باسم الانتماء والولاء.

فيلحظ أن الخطاب تكرر فيه الاستسلام وكثافة الزيف باعتباره (يرسم الهوية المتشظية.. ويوضح الكيفية التي يجلو بها تاريخيتها التي هي الرهان في تأسيسها)

وربما البردوني من أكثر الشعراء تقصياً للأنا الندية والقوية ويرجع ذلك للبيئة الفكرية والموروث والمرحلة التاريخية والمذهب الشعري والمخاوف والآلام من الموت الحضاري والتقوقع ليعيد للواقع والجماعة او الفضاء الزمكاني (النحن) أدواره برؤية عصرية متوازنة مع الماضي والحاضر، لذلك تقول الدكتورة ماجدة حمود "المثقف الحقيقي يتجاوز الرؤية المغلقة، ويبتعد عن التعامل مع مكونات هويته بصفتها جوهراً ما ورائياً وعنصراً نقياً وبنية ثابتة أو حقيقية متعالية أو شعاراً مقدماً ويخرجها من إطار الجامد بل وينظر إليها كشرط للتغيير والابتكار".

لذلك يعبر خطاب البردوني عن نتائج الانزواء والتقوقع بالموت الحضاري باعتبار مواكبة الزمن هي خصوصية (الأنا) الباحثة عن الحركة والديناميكية تحدياً للعصر والضعف والاستسلام حتى لا يتأتى الجمود والركود الحضاري، ويتجلى النهوض والتجدد في تاريخها.

نبتني لليمن المنشود من مهدنا
جسراً وندعوه أن تعال
نعرف الموت الذي يعرفنا
مسنا قتلاً ودسناه قتال
هاهنا بعض النجوم انطفأت
كي يزيد الأنجم الأخرى إشتعال

مما سبق يمكن القول: إن الذات تتقصى (الأنا)، (النحن) القوية الباحثة عن الاستمرارية والمتطلعة للمستقبل من خلال تاريخية القيم الراسخة في الكبرياء والفاعلة بهوية الأنا المتحدة بهوية الجماعة المتوارثة الثوابت مما يعكس إن التبرم من الضعف ليس نكراناً للتحولات الكونية ولكنه خوفاً من الخيانة التي تجتث مكونات خصوصية الهوية التاريخية وتمسخ أصالتها وديمومتها فقد أكثر خطاب البردوني من ذكر الخيانة، باعتبارها اختلالاً وتمزيقه لأوصال (النحن) وتشظي للأنا والهوية يقول عبد الكريم الخطيبي عن الخيانة " إنها عاطفة ممزقه وهي ضياع للطرفين، " الأنا والهوية "فيصبح الخلل الذي يصيب القيم هو التناقض يغذيها هو الجرح والتقتيل.. وبذلك يمكن أن نجعل منها جرماً مقدساً).

وأوضح أنها (انفصام عن العالم وولع بالجذر والأصل) في حالة التشظي والاختلاف.

ففي قصيدة (الغزو من الداخل) يتضح تشويه الهوية من خلال صورة (الأنا) بالظهور المتقابل بتناقض يرسم تمزق علاقات هوية الجماعة.

فظيع جهل ما يجري
وأفظع منه أن تدري
وهل تدرين يا صنعاء
من المستعمر السري
غزاة اليوم لا أشاهدهم
وسيف الغزو في صدري
فقد يأتون تبغاً في
سجائر لونها يغري
وفي أهداب أنثى في
مناديل الهوى القهري
غزاة اليوم كالطاعون
يخفى وهو يستشري
يمانيون في اليمن
ومنفيون في اليمني
جنوبيون في صنعاء
شماليون في عدن

مما سبق يمكن القول: إن الخطاب يصور الهوية الممزقة التي استسلمت للخيانة وبذلك تتحول الهوية الجمعية إلى أنوات متشظية تحولت إلي ما يشبه هويات ذرائعية لاستغلال الوطن بصورة مستترة وبذلك اضمحلت " الإرادة التي تملك مقومات الاستمرارية في إقرار شرعية الإرث الحضاري في الذاكرة والواقع"

لأن الخيانة انفصام وتمزق عن الجسد الواحد والأمة باعتبارها (الأنا) مكون من مكونات الهوية الجماعية فالماضي منفي والحاضر ممزق خؤون وضعيف يسترق الإرث الحضاري، ويتقاسم مقدرات الهوية وتتضح الخيانة من خلال " المستعمر السري، غزاة اليوم كالطاعون " ويتضح أكثر في تصوير الصراع لهوية الوطنية " يمانيون في المنفى، منفيون في اليمن، جنوبيون في صنعاء...الخ"

مما يعكس التمزق واستفحال الخيانة وحالة من الاغتراب للهوية (الأنا) التي تبحث عن (الأنت)، (الوطن)، (النحن) مما ينفي وجود مفهوم هوية جماعية وهوية أمة وطنية تتصف أنها "جماعة سياسية متخيلة".